

## أبو عبيدة

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى ، شيخ الأدب في مدينة البصرة ، منذ قضى شيخه أبو عمرو بن العلاء ، وخلا مكانه في المسجد الجامع ، في منتصف القرن الثاني ، وقد ظل يملأ ذلك المكان أكثر من نصف قرن ، وظلت شخصيته القوية وصيته البعيد يجتذبان إلى مجلسه طلاب الأدب والمتأدين في البصرة وما وراءها . وقد تخرج عليه معظم الذين كانوا يمثلون الأدب ويوجهون الحياة الأدبية في ذلك العصر ، كالحافظ والمازني وعمر بن شبة وأبي عبيد القاسم بن سلام وأبي حاتم السجستاني وأبي نواس وأهل طبقة من الشعراء كالأعيناء والحسين الضحاك .

وإلى جانب هذه الأستاذية القوية لذلك الجيل ، كان أصلاً من الأصول الكبيرة التي قام عليها الكتاب العربي ، واستمد منها النثر الفني . ولقد بلغت الكتب المسندة إليه نحو المائتين في الموضوعات المختلفة . وقد بقيت لنا منها بقايا نستطيع أن نضعه بها في موضعه الحقيقي من تاريخنا الأدبي .

وكان — فيما يبدو — من أنشط الناس في الدرس ، وأكثرهم تمثلاً للاتجاهات المختلفة في عصره ، حتى جاز لأبي عثمان الجاحظ أن يصفه بهذه العبارة : « لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة » . وهذه العبارة وحدها تدلنا على مكان أبي عبيدة من الحياة الأدبية والعقلية لذلك العهد ، وعلى المنزلة التي كان يتمتع بها بين تلاميذه وأهل عصره . ومع ذلك كله لم يكد الرجل يظفر من البحث الأدبي الحديث بأكثر من تلك الإلمامات البسيطة التي لا تكاد تغني عن العلم شيئاً . وقد كتب الأستاذ أحمد أمين شيئاً عنه في كتابه « ضحى الإسلام » في الفصل الذي عقده عن « اللغة والنحو والأدب » ، ولكنه جزء من فصل من باب من كتاب ، فلم تكن « هندسة الكتاب » تأذن بأكثر مما كتب فيه عنه .

وسنحاول في هذا الفصل أن نتبين أبا عبيدة متصلًا بمصره ، وبالتيارات الغالبة عليه ، وأن تتمثله تمثلاً مستمدًا من آثاره . ومهما تكن الاقدار قد أصابت هذه الآثار فبددتها وأضاعت معظمها ، فلا يحصى للباحث الذي يتلمس مظاهر الحياة الأدبية في القرن الثاني ، ويتتبع تاريخ النثر العربي في ملابساته المختلفة ، ويقتنى الأطوار التي مر بها الكتاب العربي ، من محاولة التعرف إليه واستبطان حقائقه ، بتقصي أخباره ونثار آثاره في المصادر المباشرة وغير المباشرة . وقد بقي لنا من آثاره قطعة من كتاب « مجاز القرآن » محفوظة في مكتبة الجامعة المصرية ، إلى جانب قطعة أخرى في دار الكتب المصرية ، ثم كتاب النقائض ، على نظر في ذلك نرجو أن نعرض له بعد . وفوق هذا لا يكاد كتاب من كتب الأدب العربي العامة يخلو من الرواية عنه ، والنقل لبعض آثاره في المواضيع المختلفة ، وإن كان أكثر هذا النقل لا يسند إلى كتاب بعينه .

١

لا نكاد نعرف شيئاً عن أصل أبي عبيدة وأوليته — كما هو الشأن في أكثر أهل هذه الفترة المضطربة — إلا ما تتحسسه تحسماً في بعض النصوص التي تروى عنه . ولدينا في ذلك نصان ذكرهما ابن النديم ، أحدهما عن علان ( أو غيلان ) الشعبي ، يقول إنه من أهل فارس ، أعجمي الأصل . والآخر ينسب إلى أبي عبيدة نفسه إذ يقول : « حدثني أبي أن أباه كان يهودياً بياجروان » فأما فارس فهي ذلك الإقليم الذي يقع على بحر الهند أو الخليج الفارسي بين إقليم البصرة والاهواز وكرمان ، وهي إقليم إيراني عريق لعله من أول الأقاليم التي صدرت عنها النزعة الشعبية واتخذت فيها منهجاً منظماً . وأما باجروان فهي مدينة قديمة على التخوم الإيرانية التركية ، والأمر فيها مختلف بين الجنس الإيراني والجنس الطوراني . ويقول عنها ياقوت : إنها « مدينة من نواحي باب الأبواب ، قرب شروان ، عندها عين الحياة التي وجدها الخضر عليه السلام ، وقيل هي القرية التي استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهلها » . وباب الأبواب ( دربند ) التي تقع باجروان في نواحيها واقعة — كما يقول ياقوت عن الإصطخرى — على بحر طبرستان ، وهو بحر التزر أو بحر قزوين ؛ فباجروان إذن واقعة في تلك

الأقاليم الجبلية التي تشرف على ذلك البحر . وحديث المستوفى عنها يجعلنا تتمثل موقعها تمثلاً أدنى إلى الدقة من هذا ؛ إذ يقول : إنها القصبية القديمة لإقليم موقان ، على أربعة فراسخ شمال برزند ، وموقان هي إسدى ولايات أذربيجان ، وإذ هي إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين . ويقول ياقوت في وصفها : « ولاية فيها قرى ومروج كثيرة ، يحتلها التركايز للرعى ، فأكثر أهلها منهم » . وهكذا تنتمي بنا هذه النصوص إلى تصور المفارقات الكثيرة التي تفرق بين « فارس » التي يذكرها نص إعلان الشعوبى ، « باجروان » التي يذكرها نص أبي عبيدة نفسه . على أنه لا تعارض عندنا بين النصين ؛ فنص أبي عبيدة يتعلق بأصله الأول ومقام أجداده ، والنص الثانى يتعلق بمنشئه ، حيث ولد ونشأ نشأته الأولى ؛ فالجهة منفكة كما يقول المناطقة ، إذ كان كل من النصين يعنى شيئاً لا يعنيه النص الآخر . وما يقوى لدينا نص أبي عبيدة : أن جده كان يهودياً من يهود باجروان ما يبدو من أن ذلك الإقليم كان من الأقاليم التي اتخذت الديانة اليهودية فيها مكاناً ظاهراً ، بدليل هذه الذكريات اليهودية التي تتصل به وتحوم حوله ، كما رأينا فى النص الذى أوردناه عن باجروان ، ومثل هذا نجده فى الكلام عن شروان ، إذ يقول ياقوت : « ويقولون بالقرب منها صخرة موسى عليه السلام التي نسي عندها الحوت فى قوله تعالى : ( قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ) . قالوا : فالصخرة صخرة شروان ، والبحر بحر جيلان ، والقرية باجروان » ويصرح البشارى فى كلامه عن بعض المدن هناك بما يدل على أن اليهودية كانت ظاهرة فى ذلك الإقليم ، كما فى كلامه عن « إتل » و « خزر » فى سياق الحديث عن « إقليم الديلم »

وإذن فأبو عبيدة من أسرة يهودية خزرية الأصل ، حتى إذا كانت إحدى تلك الغزوات التي جعل المسمون يشنونها على تلك الجهات وقع جده فى الأسر ، ثم صار إلى فارس فى ولاء أحد التيميين . وهناك نشأت هذه الأسرة الصغيرة إلى جانب مواليها : بنى عبيد الله بن معمر التيمى ، حتى خرج منها معمر بن المنثى . وقد ولد فى أوائل القرن الثانى ، على اختلاف كبير فى سنة مولده بين سنة ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ . ثم يعترض هذه الأقوال كلها فى سنة مولده نص يذكره ياقوت فى ترجمة قتادة بن دعامة السدوسى ، يرويه التوزى عن أبي عبيدة إذ يقول : « ما كنا نفقد فى كل أيام السنة راكباً من ناحية بنى أمية ، ينيخ على

باب قتادة، يسأله عن خبر أو نسب أو شعر». . وقتادة هذا مات — كما يقول الأصمعي في حكاية ياقوت عنه — «بالبصرة سنة سبع عشرة ومائة، في أيام هشام بن عبد الملك». . فإذا صح هذا الخبر ولم يكن محرفاً كان علينا أن نجعل مولد أبي عبيدة قبل سنة ١١٠ بسنوات .

وهما يكن من أمر، فقد نشأ معمر بن المثنى في البصرة — ولا ندرى متى كان انتقاله إليها من فارس — وقد صادفت نشأته هذه اليقظة القوية التي هزت العقل الإسلامي هزة عنيفة منذ ذلك الوقت، حين جعل الموالي يحسون بشخصيتهم، ويتوثبون ليظفروا لأنفسهم في ذلك المجتمع بالمكانة اللائقة بهم، والجديرة بتاريخهم وبالذور الذي قاموا به في التمهيد لهذه الدولة الجديدة. وكذلك أخذت تحفزهم هذه الحوافز القوية العميقة وما جعل يلبسها من ملابس مختلفة إلى مجازاة هؤلاء العرب في ثقافتهم، ليكونوا نظراءهم، إلى جانب استحيائهم ثقافتهم القديمة، ثم ما يستتبعه الاستطراد في هذه السبل من محاولة الغرض من العرب، ثم ما يترتب على ذلك من شعور العرب بهذه المنافسة والمغالبة، وما يوقظه ذلك في نفوسهم من الحرص، وما يدفعهم إليه من التحفز والتسلح بشتى الأسلحة؛ وبذلك امتلأ الجو نشاطاً وحيوية، وأخذت الحياة الأدبية والعملية تتخذ في مدينة البصرة، منذ أول القرن الثاني، مظهراً رائعاً، لا في استحياء الآثار الأجنبية القديمة بحسب، بل في درس الأدب العربي ومظاهر الحياة العربية درساً دائماً منظماً كذلك، بتأثير تلك الحالة التي ذكرناها.

في مثل هذه الفترات المضطربة التي تختلف فيها العناصر، ويشتد التنافس، وتعمم الحيوية، يوجد نوع من الطموح الأدبي يغمر النفوس ويضع أمامها صوراً من المجد الأدبي متألقة فاتنة. وكذلك أقبل صاحبنا معمر بن المثنى على الدرس واتخذ سبيله إلى العربية. وسنفسر هذا الاتجاه فيما بعد من بعض وجوهه. على أننا نستطيع أن نقول منذ الآن: إن لمكانة أنى عمرو بن العلاء في البصرة ولشخصيته القوية أثراً غير قليل في هذا التوجيه، فاتخذ معمر شيخاً له، وأخذ مكانه في حلقاته، وكانت من أكثر حلقات المسجد توفراً وأحفلها بالطلاب. وقد ظل أثر أنى عمرو فيه أبقى الآثار وأكثرها غلبة عليه.

وقد كان أبو عمرو رجلاً واسع المعرفة إلى حد بعيد، حتى ليذهب الجاحظ

في صفته إلى القول بأنه « كان أعلم الناس بأموار العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان » . ويصفه أبو عبيدة نفسه — كما يروي الجاحظ عنه — بقوله : « كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية والقراءة والشعر وأيام الناس ... وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد ذلك إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » . وهذا الوصف الذي يصف به أبو عبيدة شيخه الأول وأستاذه الأكبر هو طابع علمه هو الذي ظل مخلصاً له ؛ فقد كان أكثر اتجاهه إلى علوم العرب والعربية والشعر وأيام الناس ، وكان مكبراً لهذه الناحية وفيها لها ، ملتصقاً بالأسباب المختلفة لتحقيقها ، فلم يكتف بالأخذ عن أبي عمرو ، بل ذهب يتلمذ على أحد تلاميذه المطبوعين بطاعه ، وهو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب . وهو وإن كان يختلف عن أستاذه أبي عمرو بأنه كان من هؤلاء الموالى الذين اتجهوا إلى درس العربية ، قد كان أعرابي الطابع ، و « كانت حلقته جمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب » كما يقول ياقوت . ويذكر أبو عبيدة أخذه عنه بقوله : « اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملاً كل يوم أواحي من حفظه »

ثم لم يكف هذا أبا عبيدة في إرضاء تلك النزعة ، فأنجبه إلى الأعراب أنفسهم ، يأخذ عنهم ، ويستتم مادته بما يلقونها إليه من الأخبار ، وما ينشدونه من الشعر . ولم يذكر ابن النديم ولا البغدادي ولا ياقوت في ترجماتهم له هذا الأخذ عن الأعراب ، ولكن ابن النديم ذكر في الفصل الذي عقده بعنوان : « أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء وشي من أخبارهم وأنسائهم » رجلاً من هؤلاء الأعراب اسمه أبو سوار الغنوي ، وفي حديثه عنه ذكر أن من أخذ عنه أبا عبيدة . وأبو سوار هذا هو الذي يذكر في الأغانى أحياناً بهنئه الصورة : « أبو سوار » ، وأحدى صورتين محرفة عن الأخرى ، والأقرب عندنا أنه أبو سوار لا أبو سوار

ونحن نستطيع أن نعرف — عدا أبي سوار هذا — كثيراً من أسماء الأعراب الذين أخذ عنهم أبو عبيدة ، من خلال الفصول التي نقلها عنه صاحب الأغانى ، فمنهم من الغنويين ، أبو يحيى ، وعبد الحميد بن عبد الواحد ، ثم أبو برزة القيسي . وأبو حية الميرى ، وأبو محمد عصام العجلي ، ومقاتل الأحول

ابن سنان ، ومالك بن طامر بن عبد الله بن بشر بن طامر ملاعب الاسنة ، إلى غير هؤلاء ممن يذكر في هذه الفصول وفي غيرها ككتاب النقائص . وإذا كنا لا نكاد نعرف شيئاً عن أكثر هؤلاء الأعراب ، فإننا نلاحظ — أول شيء — أن الأخبار التي يروونها عنهم إنما هي في الأعم الأغلب أخبار تتصل بقبائلهم . ولعلنا نستطيع بالإلحاح في الدرس وتتبع رواياتهم ومقابلتها ، أن نتمثل شيئاً عنهم ، وعن الأجواء التي كانت تحيط بهم .

وهكذا نرى أبا عبيدة قد حدد اتجاهه ، منذ تعلمذ على أبي عمرو ، بعلوم العرب من لغة وشعر وخبر ، ثم أخذ يوغل في هذا السبيل حتى استطاع أن يأخذ مكان أستاذه من بعده . ولا تكاد كتبه التي تدل أسماءها على موضوعاتها ، ولا آثاره وأخباره المنشورة ، فيما وقع إلينا ، تتجاوز ذلك . وإن ذهب الأستاذ احمد أمين في الفصل الذي أشرنا إليه إلى أنه كان موزعاً بين ثقافات ثلاثة : يهودية وفارسية وعربية . والأصل في هذا — كما يقول الأستاذ — إنه « فارسي الأصل ، يهودي الآباء ، تيمى بالولاء » . وظاهر أن هذا لا يكفي فيما ذهب إليه . وقد يكون للرجل ثقافة ما فارسية أو هندية أو ما إلى ذلك ، ولكنه كان يتلقفها مما كان يعمر الجو العلمي والأدبي في البصرة ويشيع فيه ، كالذي جاء في كتاب الأمامي<sup>(١)</sup> مما نسب إليه أبو حاتم ، من حكاية بعض الحكم المأثورة عن فارس ، أو ما جاء في عيون الأخبار<sup>(٢)</sup> من حكايته عن بعض الهنود المقيمين بالبصرة شيئاً مما يتعلق بالبيطرة أو طب الخيل .

وقد عرف بهذه الناحية ، وأقبل عليه الطلاب يلتمسونها عنده . وكان يناقسه على هذه المتزلة فيها أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي . وكان الأصمعي يُدَلِّ بِمَكَاتِهِ لَدَى السُّلْطَانِ ، وَبِقَدْرَتِهِ عَلَى حِفْظِ الْأَخْبَارِ وَحَسَنِ أَدَائِهَا ، وَاخْتِلَابِهِ الْأَسْمَاعِ بِذَلِكَ ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ قِيمَتِهَا فِي مَجْلِسِ السَّمْرِ ، فَهُوَ — كَمَا يَقُولُ أَبُو نَوَاسٍ فِي صِفَتِهِ — بَلْبَلٌ فِي قَفْصٍ ، وَلَكِنْ غِنَاءُهَا فِي حَلَقَاتِ الدَّرْسِ غَيْرُ كَبِيرٍ . فَأَمَّا أَبُو عَبِيدَةَ فَكَانَ أَسْتَاذًا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكَانَ طَلَابُ الْأَدَبِ يَكْبُرُونَهُ لِأَسْتَاذِيَّتِهِ هَذِهِ ، وَيُقْبَلُونَ عَلَى حَلْقَتِهِ ، لِأَنَّهُمْ — عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ بَعْضِهِمْ — « كَانُوا إِذَا جَاءُوا مَجْلِسَ الْأَصْمَعِيِّ اشْتَرَوْا الْبَعْرَ فِي سَوْقِ الدَّرِّ ،

وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر ؛ لأن الأصمعي كان حسن الإنشاء والزخرفة ، قليل الفائدة .

ولسنا نعلم إلى أي مدى بلغت هذه الخصومة بين الرجلين . ولكننا نستطيع القول بأن أبا عبيدة ظفر بمخصمه في حلقات الدرس في البصرة أولاً ، ثم ظفر به بعد ذلك لدى السلطان في بغداد . وقد جاءه هذا الظفر عفواً ، وتبقيات له أسبابه دون أن يقصد إليه . وقد ذكر صاحب الأغاني طرفاً من هذه الأسباب ، في أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلی ، قال :

« كان إسحاق يأخذ عن الأصمعي ويكثر الرواية عنه ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه إسحاق وثلبه وكشف للرشيد معانيه ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعة نفسه وأن الصنيعة لا تزكو عنده ، ووصف له أبا عبيدة معمر بن المثنى بالثقة والصدق والسماحة والعلم وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع واستعان به ، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي وأسقطه عندهم ، وأنفذوا إلى أبي عبيدة من أقدمه . »

وهكذا أتيح لأبي عبيدة أن يدخل بغداد ويتصل بالسلطان فيها ، وأن يشهد الحفاوة به في مجلس الخليفة وأهل خاصته ورجال دولتنا كالفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح . وكان ذلك سنة ١٨٨ كما نص على ذلك الخطيب البغدادي ، أي بعد نكبة البرامكة ، وإن ذكر الأستاذ أحمد أمين ما يشير إلى صلته بهم ، وأنهم « كانوا يقدمونه على الأصمعي ويزاحمونه به عصبية منهم » . ولا يكاد يستقيم هذا مع ما يذكره الأصبهاني والبغدادي من ملابسات دخوله بغداد ، وأن ذلك كان من عمل الموصلی والفضل بن الربيع . ونحن نعرف بعد ما إذا كان بين الفضل بن الربيع هذا والبرامكة من جفوة وعداء ، وهذا فضلاً عن التاريخ الذي أشرنا إليه .

ولبت أبو عبيدة في بغداد فترة من الزمن ، قرئت فيها كتبه عليه ، قرأها عليه علي بن المغيرة الأثرم الوراق ، واتجه فيها إلى وضع كتابه مجاز القرآن . ثم لم يلبث أن عاد إلى البصرة ، وكان هذا الكتاب من أول ما عني بوضعه بعد عودته ، وكان من أكثر كتبه إثارة للموجدة عليه ، وبعثاً للخصومات ضده . وكان الأصمعي رأس هذه الحملة التي وجهت بسبب هذا الكتاب إليه .

وقد ظل بقية حياته في البصرة موفور النشاط في الدرس وإخراج الكتب ،

وإلى جانبه وراقه الخالص به ، ابو غسان رفيع بن سلمة العبدى ، المقب بدمآذ . وربما كان أول من اختص بين العلماء والمؤلفين بوراق يروى كتبه وينسخها ويذيعها وينزل منه منزلة الراوية من شاعره في عهد الشعر .

٢

وبعد ، فقد كان أبو عبيدة — كما رأينا — خزرى الأصل ، من هذه الأقاليم التى ظلت ميداناً للحروب المتصلة بين الإيرانيين والأتراك ، وظلت مضطربة بين هذه الجنسين ، وإن بقى العنصر التركى غالباً عليها ظاهراً فيها . وإذن فالقول بفارسيته فيه تجاوز كثير ، والمبالغة فى استنتاج النتائج من هذه الفارسية ، وتفسير الظواهر المختلفة بها ، مجانبة للدقة . ولسنا نقطع بشيء إلا أنه من هذه الأقاليم النائية ، وتلك الأجناس البعيدة التى لم تكن دخلت بعد فى معترك الأجناس فى العراق . ولهذا الحقيقة عندنا أثرها فى توجيه حياته .

ولعل مما يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل أن نجد كثيراً من رواة اللغة والأخبار وصور الحياة العربية فى هذا العصر ينتسبون إلى هذه الأقاليم وتلك الأجناس ؛ فإلى جانب أبى عبيدة فى البصرة نجد خلفا الأحمر ، وهو ليس إيرانياً على إطلاق القول ، إذ كان من فرغانة ، فيما وراء النهر ، على تخوم التركستان . وفى الكوفة حماد الرواية ، وهو ليس إيرانياً كذلك ، بل هو من تلك الأقاليم التى ينسب إليها أبو عبيدة ، إذ كان من بلاد الديلم . وفيها ابن الأعرابى ، وهو سنديّ الأصل ؛ إذ كان أبوه — فيما يقول ياقوت — عبداً سندياً . وهذه ظاهرة غريبة ولا ريب ، تكاد تؤدى بنا إلى القول بأن رواية الحياة العربية بأشعارها وأخبارها مرددة بين العرب كأبى زيد والأصمعى والفضل الضبي ، وبين هذه الأجناس البعيدة كأهل الديلم وفرغانة والسند ، كما رأينا فى أبى عبيدة وخلف وحماد وابن الأعرابى . فما تاويل هذه الظاهرة ؟

يقول الأستاذ أحمد أمين عن أبى عبيدة ، فى سياق الكلام عن طابع علمه ، إن فارسيته حررته من الخضوع للعصبية العربية . ولكن هذا إذا جاز أن يفسر نزعه الشعبوية ، فإنه يتعارض لعارضاً كبيراً مع هذا الاستعراق الشديد فى الحياة العربية متمثلة فى أشعار العرب وأخبارهم ، كما لاحظته معاصروه ، وكما

تراه واضحاً جلياً في هذه البقية الباقية من آثاره ، وحتى جاز له أن يقول وأن يقبل هذا القول منه : « ما التقى فرسان في جاهلية ولا إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسهما » . ولو أنه كان يدرس الحياة العربية ليستخرج منها مثالب العرب إرضاءً لفارسيته كما قد يذهب الزعم لقد كان يكفيه في ذلك القليل من درس هذه الحياة ، ولما اقتضى منه ذلك المذهب هذا « الاستغراق » الذي يبهرنا حتماً حين نقرأ بعض الآثار التي بقيت لنا منه ، وفيها إلى جانب الصور العربية التي يمكن أن توصف بأنها زرتية كثير من الصور النبيلة المجيدة التي تبعث على الفخر ، والتي هي جديرة أن تقوى العصبية العربية . لقد كان حق القول أن يقال : « إن فارسيته أقبلت به إلى الثقافة الفارسية » . وهذا ما لا نكاد نجد عند أبي عبيدة ، ولدينا جزء غير قليل من آثاره ، كما أننا نعرف أسماء كتبه ، وقليل بينها ما يحتمل الاتجاه الفارسي .

ولكن عبارة الأستاذ أحمد أمين مع هذا تفتح لنا السبيل إلى تفسير هذه الظاهرة التي ساءلنا عنها . فإذا كانت فارسية أبي عبيدة مما يحرره من الخضوع للعصبية العربية ، فإننا نستطيع القول بأن جنسية أبي عبيدة الخزرية مكنته من التحرر من العصبية الفارسية والعصبية العربية جميعاً . وكذلك يمكن أن يقال هذا عن بقية الرواة الذين أشرنا إليهم ، كجهاد وخلف وابن الأعرابي . على أنه ربما كان لمثل هذه الجنسية أثر في التمكين لهم من هذا المذهب الذي اتجهوا إليه ، وهو التحرر من ربة الإلف للحياة العربية ، وهو الإلف الذي يحيط بالعربي ، ويصد عنه شعور العجب ، وهو الشعور الذي يعتبر من أكبر البواعث على أن يتنبه الرجل لما حوله تنبهاً قوياً ، حتى يراه جديراً بالتسجيل .

ذلك أن هذه الجنسية كانت لا تزال حتى ذلك الوقت بعيدة عن معترك الأجناس التي كانت تصطرح على السلطان ، وتختلف على صفات العظمة والسمو والمآثر المستمدة من التاريخ القريب والبعيد . وبذلك استطاعت أن تقف طليقة لا تغيرها هذه المشاعر المحتدمة المضطربة ، واستطاع أصحابها أن ينظروا فيما حولهم نظرة حرة واسعة مجردة ، وأن يختاروا لأنفسهم الميدان الذي يملكون فيه التبريز والغلبة ، أو يحققون فيه لأنفسهم بعض الغايات أو المكائات الاجتماعية التي يتشوقون إليها ويتطلعون إلى الظفر بها . هذا هو — فيما نحسب — مفتاح ذلك السر ، ونقطة البداية في تحقيق تلك الظاهرة . ولعل

أقدم من يمثلها حماد الراوية ، وربما كان بشخصيته وأوليته هذه من الأسباب القوية التي مكنت لها ، فالمواطنة أو شبه المواطنة التي نراها بين حماد وخلف وأبي عبيدة كالمعاصرة تثير التأسي وتبعث على الاقتداء .

وقد نجح حماد نجاحاً يكاد يكون منقطع النظير في عصره ، في رواية الحياة العربية بأخبارها وأشعارها ، كما نجح إلى جانب ذلك في الظفر بتلك المكانة الاجتماعية التي تطمح الأبصار إليها . فكان — كما يقول أبو الفرج — « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستريه ، فيفد عليهم وينادهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته » . فلا جرم كان بشخصيته هذه وبتلك المكانة التي وصل إليها من أفضل الأسي التي تبعث على الاقتداء ، وتعمل عملها في قيام الظواهر المختلفة ، ولا سيما إن كان هنالك نوع من الصلة كالذي كان بينه وبين أبي عبيدة مثلاً .

ويقول ابن النطاح في حكاية الباعث الذي بعث حماداً على اتهاج تلك السبيل — كما روى أبو الفرج — أنه « كان في أول أمره ينتشر ويصحب الصماليك والصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه ، فبلغ من العلم ما بلغ » . وهذه قصة قد تصح وقد لا تصح . ولكن الذي لا يكاد يداخلنا فيه الريب أن حماداً كان يحس منذ صغره أنه غريب في المجتمع الذي كان يعيش فيه ، وهو المجتمع الكوفي ، فلا هو نبطي ولا هو فارسي ولا هو عربي ؛ فكان لا بدّ له ، في طبيعة الأشياء في مثل هذه الحالة ، أن يستكمل هذا النقص ، وأن يملأ هذا الفراغ الذي يحيط بمشاعره ، فيصطنع إحدى هذه الجنسيات التي حوله ، وكلها سواء بالنسبة إليه ، إلا أن العربية كانت ترجحها بطبيعة الحياة في ذلك الوقت ، فواليه الذين نشأ فيهم وتربى بينهم هم بنو شيبان ، والدولة القائمة عربية في حقيقتها وفي ذوقها . وما هؤلاء الفرس ومن إليهم ممن يضمرون الخروج على الدولة ، إلا ثوار لا يمت إليهم بصلة ، ولا يشعر نحوهم بأصرة . وإذن فلا بدّ له من أن يصطنع العربية ، وأن يظفر من ذلك الاصطناع بما يملأ ذلك الفراغ ، فيحيا حياة عربية بدوية تملأ حواسه بالمظاهر العربية . ولعل تلك الحياة هي التي يشير إليها ابن النطاح

بالشطر وصحبة الصعاليك والصوص ، وأن تكون حياته المعنوية عربية أيضاً ،  
 فيملاً عقله وخياله من الصور العربية الفنية ، يلتمسها في هذه الأشعار ، وفيما يتناقله  
 الأعراب من الأخبار . فإذا تم له هذا فقد وجد نفسه في سبيل اتخاذ صناعة  
 جديدة ، هي صناعة « الرواية » ، وقد تهيأت له أسبابها ، واجتمعت لديه مادتها  
 بما لم تجتمع لأحد قبله . وما أشد حاجة الكثير من رجال هذه الدولة العربية  
 إلى هذه الصناعة ، وبذلك يستطيع أن يحقق لنفسه هذه المكانة الأدبية  
 والاجتماعية التي تصحح له موضعه .

هذه عبورة من الحالات النفسية كما يمكن أن تصورناها لنا الملابس التاريخية  
 والأدبية لحمد الراوية . وحاجتنا إلى معرفة هذه الصورة متصلة بتعرف الحوافز  
 التي دفعت أبا عبيدة لسلك سبيله تلك التي سلكها ، وهي بعينها سنبل حماد  
 الراوية . فالجلان يلتقيان في هذه السبيل ، كما يلتقيان في جنسية واحدة هي  
 الجنسية الخزرية . وإذا كانا مختلفان بعد في ظروفهما ، إذ نشأ أبو عبيدة في إبان  
 الانقلاب العباسي ، وبين عوامل التوثب على الجنس العربي ، فإننا نحسب أن هذه  
 القدوة التي كانت تتمثل في حماد الراوية أمام أبي عبيدة وهو في مفترق الطرق ،  
 — وهي قدوة تملك كل عناصر التأثير — كانت مما يعوض عن هذا الاختلاف ،  
 ويسدده في تلك السبيل ، وإن بقي بعد ذلك في أبي عبيدة شيء من آثار هذه  
 الظروف كالنزعة الشعبية ، وهي نزعة وجدت من العوامل الشخصية ما أبرزها ،  
 كما نرجو أن نعرض لذلك بعد ، فقد كان هذا أمراً لا بد منه في طبيعة الأشياء .  
 ولكننا نبادر فنقول منذ الآن إن هذه الشعبية لاصلة لها بالفارسية ، ولكنها  
 — فيما نحسب — شعوبية على الأصل في هذه التسمية ، وهو التسوية بين الشعوب  
 المختلفة التي تتكون منها الأمة الإسلامية ، فلا فضل لعربي على عجمي . ذلك هو  
 الأصل عندنا في شعوبية أبي عبيدة ، ويرجحه لدينا ما هو معروف عنه من  
 أنه كان خارجي المذهب ، وقد نص على ذلك الجاحظ ، كما ذكر ابن النديم  
 وياقوت أنه وضع كتاباً في «خوارج البحرين» . ومذهب الخوارج يتفق مع هذه  
 الشعبية بمعنى التسوية ، فالناس في هذا المذهب سواء ، ورأيهم في الأحق بالخلافة  
 أنه الأصلح لها عربياً كان أو غير عربي صريح في الدلالة على ذلك . ولو أن شعوبيته  
 كانت شعوبية فارسية لكان الأقرب إليها والأدنى إلى الاتفاق معها ، أن يكون  
 شيعي المذهب ، وهو ما لا نعرف عن أبي عبيدة أنه كان يقول به أو يذهب إليه

هذا هو الاصل في اتجاه أبي عبيدة إلى الحياة العربية يتعرف أخسارها ويدرس أشعارها . وقد أقبل على ذلك — كما قلنا — مستغرفاً فيه ، ملتتمساً كل سبيل إليه . فلم يكتف في ذلك بالتلقى عن شيوخ البصرة الذين تلقوا عن الأعراب كأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ، وإنما سلك سبيل هؤلاء الشيوخ ، فجعل يأخذ عن الأعراب كما كانوا يفعلون .

وكان لهؤلاء الأعراب سوق كبيرة رائجة في هذه الأمصار ، ولا سيما البصرة بلد أبي عبيدة التي نشأ فيها كما قلنا ، منذ نشأت الحاجة إلى درس العربية واستنباط قواعدها وتثقيف اللسان بها ، والاعتماد في هذا الدرس على مصادره الأولى ، وهي الشعر الذي يرويه هؤلاء الأعراب ، واللغة التي يتكلمون بها ، والأخبار التي يقصونها . فلم تعد الدوافع التي تدفع هؤلاء الأعراب إلى المصر مقصورة على التجارة فيما اعتادوا أن يتجروا به ، فقد نشأت لهم هذه السوق الجديدة يتجرون فيها بالحياة العربية التي يحيونها والتي يروونها ، مع هؤلاء النفر الذين اتخذوا من هذه الحياة وروايتها ودرسها وتسجيلها مادة علمهم وميدان نشاطهم ، سواء أ كانوا من رجال النحو أم من أصحاب الشعر والخبر .

وقد نشأت هذه السوق في البصرة بمربدها ، حيث كان هؤلاء الأعراب يفتدون للتجارة بأموالهم ، وقاما كانوا أول الأمر يتجاوزونه . حتى إذا أقبلت هذه السوق الأدبية الجديدة ، وأحس هؤلاء الأعراب بإقبالها ونشاطها ، وبأنها أجدى عليهم وأكثر عائدة لهم ، أخذوا يدخلون المصر ، ويتصلون بالبيئات العامة فيه ، بل جعل بعضهم يستقر به ، وأخذ فريق منهم يجدد في أسلوب هذه التجارة الأدبية ، فلا يقتصر على الرواية ، بل يصطنع إلى جانبها الوراثة ؛ فقد أحس أن القوم يتجرون بعلمه ، ويفيدون منه أضعاف ما يفيدده ، فأخذ يزاحمهم في سبيلهم . وبذلك أخذنا نرى من هؤلاء الأعراب من يذكر عنه أنه كان يورق في الحضرة ، كالذي يذكره ابن النديم عن أبي مالك عمرو ابن كركرة .

ولقد كان إقبال الأعراب على البصرة بهذه الصورة من العوامل القوية في نشاط هذا الاتجاه العربي في الحياة الأدبية بهذه المدينة ، نشاطاً استطاع أن يعادل ذلك الاتجاه الآخر إلى رواية الحياة الفارسية ويغالبه ، وهو الاتجاه الذي نراه عند ما ندرس ابن المقفع مندفعاً في سبيله بجميع قوته لا يكاد يعبأ

بشيء ، ولكنه لم يلبث أن رأى ذلك الاتجاه العربي الذي كان الأعراب يزيدونه قوة ، ويملاؤن به الجو الأدبي في البصرة ، يناظره ويغالبه ويأخذ عليه سبيله ، ويكسر من حدة نشاطه ؛ فقد كان يملك الوسيلة التي يملكها مناظره ، وهي روح القصص وتصور البطولة في صورها المختلفة . وهي الروح التي تفتن الجمهور وتقبل به وتسيطر عليه . ولا ريب أن هذا الأثر الأعرابي من أخطر الآثار في الحياة الإسلامية : الأدبية والاجتماعية معاً ، وهو عندنا أخطر من جميع ما ينسب إلى الأعراب في تاريخ الأدب العربي ، من الاستعانة بهم في وضع النحو وجمع اللغة وما إلى ذلك . ويكاد يعادله عندنا ما أتيح لهذا الاتجاه العربي من رجل كأبي عبيدة ، احتتم له من المواهب العقلية والفنية ، ومن القدرة على الدءوب والصبر ، ما استطاع به أن يجعل ذلك الأثر الأعرابي قوة منظمة ، وأن يسبغ عليه من المظاهر العلمية والأدبية ما يجعله بعيد الأثر ، جديراً بمناهضة ذلك الاتجاه الفارسي .

ولكن قبل أن نأخذ في عرض ما عمله أبو عبيدة في هذه السبيل لا بد لنا أن نتساءل أولاً عن العوامل التي أدت إلى اجتماع هذا الفيض الزاخر من أخبار الحياة العربية وصورها ، حتى أتيح لأبي عبيدة أن يصنع منه هذا البناء العظيم الذي يمثل الحياة العربية البدوية تمثيلاً يأخذ بجوانب النفس ، أو بعبارة أخرى : كيف أتيح لبداية البصرة أن تضم هذه الأطراف المختلفة من صور الحياة الجاهلية ؟

الأمر في هذا قريب هين متصل بطبيعة المجتمع البصري منذ أول عهده ذلك أن البصرة كانت أكبر المراكز التي ثارت فيها الخصومات العنيفة المتصلة بين القبائل العربية ، وكانت هذه الخصومات المحدثه والمنافسات الجديدة سبباً في إثارة الأحقاد القديمة الكامنة في أعماق هذه القبائل . ومنذ ثارت هذه الأحقاد وجدت من الشعراء من يؤرثها ويهيجها ويشير الذكريات المختلفة المتصلة بها ، كما وجدت من الرواة من يجعل همه في اقتصاص أخبارها وتتبع أحاديثها . وليس من شأننا هنا أن نذكر الأسباب المختلفة لهذه الخصومات ، فأنما فإيتنا المتصلة بموضوعنا أن نسجل نتائجها الأدبية . ومن أول هذه النتائج ما أشرنا إليه من قيام الشعراء بها ، واستثارة الذكريات الجاهلية في أشعارهم حين يفخرون بقبائلهم ، ويفغضون من قبائل خصومهم ، ويلجئون في هذا

لجأ بعيداً كلما لجت الخصومة ، حتى لئرى من أهل هذه القبائل من يستعفون من صنيع هؤلاء الشعراء ، كالذى يحكيه ابن سلام من أن رجلاً من تميم مبث بين جرير والتميمي ، وقالوا : والله ما شعراؤنا إلا بلاء علينا : يثيرون مساوينا ، ويهجون أحياءنا وأمواتنا . ولقد كثر الشعراء الذين شاركوا بشعرهم في هذه الخصومات ببادية البصرة كثرة ظاهرة ، وكثر الشعر الذى ينشدونه ويذيعونه كثرة غامرة ، وبالغوا في استئثار الذكريات وخلق المفاخر والمثالب مبالغته كبيرة . وكان هذا الشعر يمجّد من رجال هذه القبائل المختلفة آذاناً مصيخة ، وأعناقاً مائلة ، وأعصاباً هيأتها هذه الخصومات للطرب الشديد به . وطبيعى أن تنشأ حول هذه الأشعار ، وما تشير إليه من أحداث ، وما تترنم به من مفاخر ، طائفة من الأخبار والأقاصيص تفسر إشاراته ، وتفصّل مجملاته ، وتسير إلى جانبه في استئثار النفوس ، واستفزاز المشاعر الحاقدة .

هذه الحركة الأدبية القصصية التى نشأت حول أشعار الفرزدق وجرير والراعى والبُعَيْثُ وابن لجأ التميمي والصّلْتان العبدى وغيرهم من شعراء هذه البادية فى القرن الأول هى الأصل فى اجتماع ذلك الفيض الزاخر من أخبار الحياة الجاهلية المختلفة فى تلك الفترة من الزمن ، وفى ذلك الإقليم . وقد يكون من هذه الأخبار ما هو صحيح ، وقد يكون منها ما هو مبالغ فيه ، وما هو مختلف موضوع ، ولكنها جميعاً تشترك فى أنها صور للحياة العربية البدوية . والأصل فيها هو تلك الخصومات القبليّة أولاً ، ثم ما نشأ عنها من خصومات شعرية ، ثم لم تلبث هذه الأخبار والأقاصيص أن صارت مادة من موادّ الدرس والطلب فى بيئات البصرة الأدبية والعلمية ، تلتبس لذاتها ولما فيها من مته فنية ، وتلتبس لما فيها من تصوير للحياة الجاهلية العربية ، وتلتبس لما تتضمنه من تفسير لشعر هؤلاء الشعراء . وقد جاء أبو عبيدة فجعل يطلبها فى حلقات الدرس ، كما جعل يلتبسها عند أولئك الأعراب .

والمسألة التى تواجهنا الآن هى : ماذا صنع أبو عبيدة بهذه الأخبار والأقاصيص ؟ أو بعبارة أخرى : ما هو أسلوبه وخصائصه فى رواية الحياة العربية ؟

له الطاهرى

( يتبع )